عندما استشاط غضبًا

والذي حدث أن الباب العالي كان قد أرسل للباشا مندوبًا لإبلاغه بشروط معاهدة لندن، وكان هذا المندوب يُدعى رفعت بك، فقابله بسراي رأس التين، وأبلغه الشروط، فغضب الباشا وأغلظ له في الجواب، وأقسم ألا يتنازل عن شبر واحد من أملاكه، فغادر رفعت بك مصر وتوجه إلى الأستانة، فحضر قناصل الدول إلى سراي الباشا في رأس التين، وكرروا عليه شروط المعاهدة فاستشاط غضبًا وقال لهم:

- أتعشم أن ترحلوا كما رحل رفعت بك..

فقال أحدهم:

- ولكن يا صاحب السمو، ليس لدينا تعليمات بمغادرة مصر.

- ولكني لم يعد لي ثقة فيكم، والعوائد المرجعية تقضي في حالة الحرب أن يرحل وكلاء أعدائنا عن البلاد، فبقاؤكم لا يتفق مع هذه الحالة.

فغادر القناصل القصر بعد أن أمهلوا الباشا عشرة أيام أخرى للتفكير في الرد.

وقد حاول الباشا التفاوض مع الباب العالي بدون تدخل الدول الأخرى ليصلوا معًا إلى اتفاق مرضٍ، ولكن الباب العالي نفسه لم يكن يملك حق التفاوض منفردًا، وليس له القدرة على ذلك، وعندما عاد

القناصل لمقابلة الباشا بعد عشرة أيام، رفض مقابلتهم وقابلهم بوغوص بك وزير خارجيته والذي لم يكن مفوضًا بالرد، فاعتبروا ذلك رفضًا لمطالبهم؛ وهكذا بدأت الحرب بين الباشا وكل هذه الدول مجتمعة والتي بالتأكيد لم تكن في صالح الباشا. فاضطر في النهاية إلى الموافقة على جميع شروط معاهدة لندن، وبذلك تم حرمانه من ثمار جميع انتصاراته، وكأنه لم ينجح سوى في بناء الأساس فقط لبناء شاهق كان يحلم به، وهذا الأساس كان تأسيس مصر الحديثة. بينما فشل الباشا في تحقيق مشروعه الكبير، وقد أثرت بلا شك كل هذه الأحداث على الباشا، وأصبح لا يثق فيمن حوله، سوى شخص واحد فقط هو لاظ بك الذي لم يبتعد عنه أبدًا، وظل الصديق الوفي والناصح الأمين وكاتم السر والمتنفس الوحيد لغضب الباشا والمتلقي لهمومه وأحزانه.

فكان يزوره يوميا بسراي رأس التين، يتجاذبان أطراف الحديث، وبمرور الوقت اعتلت صحة الباشا وأُصيب بضعف في قواه العقلية، ولم يعد في استطاعته الاضطلاع بأعباء الحكم، ولم ينجح معه أي دواء، فعقد إبراهيم باشا مجلسًا خاصًّا برئاسته، واستقر رأي المجلس على أن يتولى إدارة شئون البلاد بدل أبيه، فتولى الحكم في أبريل سنة ١٨٤٧ وأبلغ الأمر إلى الباب العالي، فأرسل إليه في يوليو فرمان التقليد، وهكذا تولى إبراهيم باشا حكم مصر في حياة أبيه.